الفصل الثامن

٤٤ - الدولة الطولونية من سنة ٢٥٤ هـ - سنة ٢٧٠ هـ أو سنة ٨٦٨م - ٨٨٣ م :

تنتسب هذه الدولة إلى طولون الغلام التركى الذى أهداه نوح بن أسد السامانى عامل بخارى إلى المأمون فلم ينل ملكًا ولكن ولد له غلام فسماه أحمد وقيل: إنهُ تبناه ورباه تربية عربية.

وقد نشأ عظيمًا أديبًا يتقن اللغة العربية كأبنائها وساعده استعداده الفطرى وسما بهِ جده فقدم مصر نائبًا عن الأمير باكباك ودفعته مقدرته السياسية إلى أن صار واليًا لمصر فسعى إلى الاستقلال الداخلى وأكثر من الجند والحشم وقرب العلماء والقراء وبنى جامع ابن طولون فى مصر ورتب الصدقات والمبرات فاستمال الناس واجتذب قلوبهم ولما علم وتيقن أن الدولة العباسية ضعيفة وقد أنهكتها غارات الثوار الداخلية وفتنة الزنوج العظمى طمع فيها وقطع إرسال الخراج إلى الخليفة المعتمد غير وجل واعتز بنفسهِ فأغار على فلسطين سنة ٨٧٨ م وضمها إلى دولتهِ وعين واليًا للرملة. فاتسع ملكه حتى جاوز نهر الفرات وبنى قلعة يافا القديمة وحاول الاستيلاء عَلَى مكة فلم يفلح. ثم قطع خطبة ولى العهد الموفق لمنافسة كانت بينهما فأمر الموفق أن يلعن على المنابر وحذف اسمه من الخطبة واعتبره خارجيًا. وفى عهد إمارته سكنت البلاد من القلاقل إلى أن توفى سنة ٨٨٤ م/ سنة ٢٧٠ هـ وولى الأمر بعده ابنه خمارويه وفى سنة ٢٧١ هـ كانت موقعة الطواحين عَلَى نهر روبين(*) فانتصر المعتضد أولاً وهرب خمارويه وبينما كان جنده منهمكًا بنهب السواد خرج عليهم الكمين ووضع فيهم السيف ففر المعتضد وظل الجيشان يضطربان وليس لواحد منهما أمير فانجلت المعركة عن

(*) لم تزل أثار الطواحين هناك وقد وهم من ظنه نهر العوجاء.

خذلان العراقيين واستظهار المصريين. فذهبت البشارة إلى خمارويه وهو فى مصر فسرَّ كثيرًا وبعد ذلك صالح الخليفة وتوثقت العلائق بينهما فقلده أحكام مصر والشام وحدود الروم بشرط أن يدفع ٤٥٠ ألف دينار سنويًا ويترك العواصم وقنسرين. وقد تقرب للمعتضد فقدم إليه هدايا ثمينة وعرض عليه أن يزوج ابنته «قطر الندى» بابنه فقبلها الخليفة لنفسهِ وجهزها أبوها بجهاز عظيم أسرف فيه وأنفق من الأموال ما أضعف ماليته فأساء إلى الأهالى ونفرهم فقتل فى الشام ذبحا ودفن فى مصر سنة ٨٩٦ م وسنة ٢٨٢ هـ وتعاقب على البلاد أبناء بنى طولون فلم يُروَ لهم عمل مبرور أو شر مذكور. وسنة ٩٠٥ م وسنة ٢٩٢ هـ انقرضت مملكتهم وأخرجهم محمد بن سليمان من مصر والشام وفى سنة ٢٩٣ هـ كان عامل دمشق والأردن وفلسطين أحمد بن كيغلغ فذهب إلى مصر لمحاربة إبراهيم الخليجى وأناب عنه فى الأردن يوسف بن إبراهيم بن بغا فاغتنم القرامطة هذه الفرصة وساروا إلى بصرى واذرعات [اذرع][1] فافحشوا فى النهب واثخنوا فقتلوا نائب البلاد يوسف ونهبوا طبريا وعاثوا فى الأرض فسادا فانفذ الخليفة حسين بن حمدان إلى مقاتلتهم فانسحبوا إلى البادية وكانوا يغوّرون الماء خلفهم حتى لا يستطيع الجيش أن يتعقبهم لقلة المياه

٤٥ - الدولة الأخشيدية سنة ٣٢٣ هـ ٣٣٤ هـ (٩٣٤ م) :

إخشيد لقب ملوك فرغانة فى تركستان وسعد ملك الملوك. مثل تبع اليمن وإمبراطور وملكشاه وقيصر وكسرى..

أما مؤسس الدولة الأخشيدية فهو طُغج بن جُف من سلالة ملوك فرغانة القدماء كان من مماليك المعتصم فاقطعهُ محلا فى(سرّ من رأى)[1] وبعد وفاته اتصل ابنه بلؤلؤ غلام ابن طولون ثم عرفه أبو الجيش خمارويه فاعجب به وقلده دمشق وطبرية. فلما قتل أبو الجيش عاد طغج إلى المكتفى فوشى به وزير الخليفة العباس بن الحسن لأنهُ أبى أن يتزلف إليه فأمر الخليفة بسجنه إلى أن قضى نحبه ثم

(١) يوجد ثلاث بلاد متشابهة الاسماء وهى ادرع جنوب الكرك، اذرع ذرعاء، ادرعات ادرع

(١) مدينة فى العراق تدعى سامرا

هرب ابنه محمد إلى الشام واتصل بأبي منصور تكين الخادم. فاظهر مقدرة وهمة ودهاء فقلده عمان وجبل الشراة وتدرج في الرئاسة فعين حاكمًا للرملة سنة ٣٠٩ هـ وسنة ٩٢٧ م. ثم نقل إلى دمشق فسر بهِ الخليفة القاهر وولاه مصر سنة ٣٢١ هـ فمكث بها برهة قصيرة وصرف عنها ثم أعيد إليها في خلافة الراضي وعهدت إليهِ أعمال مصر جميعها فعزل عنها أحمد بن كيغلغ ومنحه الخليفة صلاحية واسعة فصار أشبه بملك مستقل وسنة ٣٢٨ هـ استولى ابن رائق(*) عَلَى دمشق وتوجه إلى الرملة فملكها وسار إلى عريش مصر فصادمه الإخشيد وهزمه فارتد إلى دمشق بأقبح صورة فتعقبه أخو الإخشيد أبو نصر بن طغج بجيش كثيف فاعترضه ابن رائق واقتتلوا عَلَى عين اللجون[1] فقتل أبو نصر وانهزم عسكره فأخذه ابن رائق وكفنه وحمله إلى أخيه الإخشيد بمصر وانفذ معه ابنه مزاحم وأصحبه بكتاب يعزّيه بأخيه ويعتذر عما جرى ويأسف عَلَى ما حدث ويحلف أنهُ ما أراد قتله وقد قدم ابنه ليقتص منه فتلقى الإخشيد مزاحماً بالجميل وخلع عليهِ وردَّه إلى أبيهِ واصطلحا عَلَى أن تكون الرملة وما وراءها للإخشيد وباقي فلسطين والشام لابن رائق بشرط أن يحمل إليه الإخشيد عن الرملة ١٤٠ الف دينار سنويًا. وفي سنة ٣٣٠ هـ هب الإخشيد من مصر لفتح دمشق فاستأمن إليه عاملها محمد بن يزداد فنقله إلى شرطة مصر وأناب بها بدر الخرشني وفي سنة ٩٤٢ م سنة ٣٣٢ هـ قلد الخليفة الإخشيد إمارة الحجاز وسنة ٣٣٤ هـ ٩٤٦ م توفي بدمشق ودفن بالقدس وولي الأمر بعده ابنه أبو القاسم انوجور «محمود» فاستضعفهُ سيف الدولة وقصد دمشق فملكها وأساء إلى أهلها فخابروا كافورًا وصي الأمير فجهز جيشًا عرمرمًا وسار لمحاربة سيف الدولة فتصافا قرب الرملة وبعد جهد انهزم سيف الدولة واسترجع كافور دمشق وفلسطين.

كان أبو القاسم صغيرًا وخادمه كافور وصيه فغلب عليه وتفرَّد بالولاية ورشح نفسه للملك فقصده الشعراء ومدحه المتنبي بقصائد فائقة منها:

ومن مثل كافور إذا الخيل أحجمت وكان قليلاً من يقول لها أقدمي

(*) حاكم حران وقنسرين والعواصم..

(١) ماء يبعد عن جنين ساعتين ونصف..

أبا المسك أرجو منك نصرًا عَلَى العدى وآمل عزًّا يخضب البيض بالدم

فلو لم تكن فى مصر ما سرت نحوها بقلب المشوق المستهام المتيم

وكافوريات المتنبى من خيرة شعره فقد أجاد فيها آملاً أن يوليه إقليمًا فلم يظفر به وقد أشار بعضهم عَلَى كافور ليمنحه إقطاعًا فقال: «حسبكم أن من يدعى النبوة مع محمد ألا يدعى الملك مع كافور».

إن من يطلع على تاريخ حياة كافور ويعرف كيف استوى على عرش مصر وسورية تحدثه نفسه بكل عظيمة. كان كافور عبدًا زنجيًا خصيًا فاشتراه الإخشيد بثمانية عشر دينارًا وقدمته نفسه الكبيرة وشخصيتهُ البارزة إلى أن أصبح قائدًا مشهورًا ثم عين وزيرًا لانوجور ومدبرًا لملكتهِ فساس الحكومة بإدارة قويمة ورأى سديد. فلما توفى أنوجور تولى الملك بعده أبو الحسن ولم يك له من الأمر إلا اسمه وبعد أن مات استقل كافور بمصر وتلقب بالإخشيدى فقلد ولاية مصر وسورية والحجاز وتوفى سنة ٣٥٦ هـ وسنة ٩٥٦م ودفن فى القدس فضعفت الدولة الإخشيدية بعده واستولى جوهر الصقلى قائد المعز الفاطمى عَلَى مصر وانتزعها من يد أبى الفوارس الإخشيدى وأنهى الدولة الإخشيدية بعد أن عاشت ٣٤ سنة.

وقد امتدح المتنبى ولى عهد أبى الفوارس بقصيدة عصماء منها:

فمالى وللدنيا طلابى نجومها ومسعاى منها فى شدوق الأراقم

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم

ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روّى رمحه غير راحم

فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

❁ ❁ ❁

إذا صلت لم أترك مقالاً لقائك وإن قلت لم أترك مقالاً لعالم

وإلا فخانتنى القوافى وعاقنى عن ابن عبيد الله ضعف العزائم

حمته عَلَى الأعداء من كل جانب سيوف بنى طغج بن جف القماقم

هم المحسنون الكرُّ فى حومة الوغى وأحسن منهُ كرهم فى المكارم
وهم يحسنون العفو عن كل مذنب ويحتملون الغرم عن كل غارم
حيون إلا أنهم فى نزالهم أقل حياء من شفار الصوارم

٤٦ - بعض أبطال الدولة العباسية

جاءت الدولة العباسية والحكم ممهد فلم تحتج لتوسيع حدودها أو نشر لغتها إنما اقتصرت على هدم الحكومة الأموية وبناء دولتهم مكانها وهو عمل صعب شاق تذل أمامه أعناق العظماء وقد قام به أقطاب عظام نذكر هنا بعضهم.

١ - أبو مسلم الخراسانى

اسمه عبد الرحمن من ذرية بزرجمهر. نشأ فى حصن عيسى بن معقل وكان يختلف مع ابنه إلى المكتب فظهرت نجابته وتفوّقه من صغره واتصل بالنقباء العباسيين فعجبوا بمعرفتهِ وأدبهِ وأخرجوه معهم إلى مكة وعرجوا إلى الحميمة «عش الدعوة العباسية» فاهدوه إلى الإمام وانصرفوا فلما رجعوا ثانية سألوه رجلاً عاملاً يقوم بأمر خراسان فقال: إنى جربت هذا الأصفهانى ظاهره وباطنه فوجدتهُ حجر الأرض فقلده الأمر وأرسله إلى خراسان فبث الدعوة ونظم الإدارة ثم وثب وحارب قواد مروان وبايع للسفاح فصفت له خراسان وقال:

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت عنهُ ملوك بنى مروان إذ حشدوا
مازلت اسعى بجهدى فى دمارهم والقوم فى غفلة بالشام قد رقدوا
حتى طرقتهم بالسيف فانتبهوا من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غنمًا فى أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد

ولما امّحت دولة بنى أمية وأسست دولة بنى العباس طمع أبو مسلم فى الخلافة وطلب إلى السفاح أن يسمح له بالحج آملاً أن يوليهُ إمارته ولن يتولاها آنذاك إلا ولى العهد فأذن له السفاح بالحج واعتذر إليهِ أن قد سبق فوليت إمارة الحج إلى أخى المنصور فحقد أبو مسلم وحج مع المنصور وكان لا يأتمر بأمره

ولا يسير خلفه ويتقدمه فى الرحيل وبذل فى موسم الحج أموالاً طائلة فحبب إليه قلوب العرب واستمالهم وادّعى أنهُ عباسى من ذرية سليط بن العباس وكان مبدأ فى مخاطبة المنصور ومكاتبتهِ بنفسهِ وخطب عمته آسيا واستخف بالمنصور فاحفظهُ وأحنقهُ إلا أنهُ كظم غيظه حتى توفى السفاح وخلع عبد الله بن على فأرسله المنصور إلى محاربتهِ فذهب إليهِ وقضى عَلَى جيشهِ وحاول المنصور أن يصرفهُ عن خراسان اتقاء عصيانه فأبى فاحتال عليهِ وقتله ثم استشار مسلم بن قتيبة فى أبى مسلم فقال له الآية ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (١) ودخل جعفر بن حنظلة على المنصور وقال له ما تقول فى أمر أبى مسلم؟ فأجابهُ إن كنت أخذت منهُ شعرة فاقتل ثم اقتل فأراه إياه فى البساط قتيلاً فقال يا أمير المؤمنين عد هذا اليوم أول خلافتك.

٢ – عبد الله بن على

هو عباسى الأصل عم المنصور وناب من أنياب الدولة العباسية وركن من أركانها وعظيم من عظمائها. نادب نفسه إلى قتال بنى أمية وصاحب جيش المغرب وقال جيش مروان فى وقعة الزاب ونال عرش بنى أمية فى دمشق وهاتك أستارهم ونابش قبور خلفائهم. كان عامل الخليفة فى دمشق فلما توفى السفاح دعا الناس إلى نفسهِ وقال لهم: إن السفاح جمع أبناء أبيهِ وراودهم فى محاربة مروان وقال من انتدب منكم إليهِ فهو ولى عهدى فلم ينتدب غيرى فذهبت وأيدت للسفاح الملك وشهد له بعض أخصائه ومعارفه فبايعهُ الجميع فسير المنصور أبا مسلم إلى محاربتهِ والتحم الجيشان وبعد قتال شديد هزم جيشه فذهب والتجأ إلى أخيهِ سليمان بالبصره.

إن هزيمة جيش عبد الله بن على لم تكن عن جهل وضعف تدبير وقلة جند وجبن رجال بل كل شىء كان موفورًا اللهم إلا أن الجند لم يكونوا يعتقدون بصحة قضيتهم وأنهم يقاتلون على الحق بل كانوا موقنين أنهم مبطلون فى دعواهم وأن عبد الله بن على خارجى فلم يصدقوا الحملة ولم يحاربوا برغبة ولم

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٢.

يثبتوا فى القتال فهزموا فلو كانوا مؤمنين بصحة دعوى قائدهم لاستبسلوا ولنُصروا نصرًا مبينًا. ومن أبطال دعوة العباسيين سليمان بن كثير وأبى سلمة الخلال وزير بنى هاشم ثم البرامكة وغيرهم ولكنا لا نقصد هنا أن نلم بذكر جميع القواد العظام ونقتصر على تراجم هؤلاء الأبطال لترسخ فى ذهن الطالب شهرتهم ويعلم أن فى قومه رجالاً لا يقلون عن رجال الغرب الذين يتغنى بهم قومهم.